٢ـ أبو تمام بين أعدائه وأصدقائه

للأستاذ درينى خشبة

فى أخبار أبى تمام لأبى بكر الصولى أن أعداء أبى تمام احتجوا فيما احتجوا به على سرقاته بما رواه[١] أحمد بن أبى طاهر أبو الفضل الكاتب قال : دخلت على أبى تمام وهو يعمل شعراً ، وبين يديه شعر أبى نواس ومسلم ، فقلت : ما هذا ؟ قال : اللات والعُزّى ، وأنا أعبدها من دون الله مذ ثلاثين سنة !

وقد دافع الصولى عن أبى تمام فقال : وهذا إن كان حقاً فهو قبيح الظاهر ، ردىء اللفظ والمعنى ، لأنه كلام ماجن مشغوف بالشعر والمعنى أنهما شغلانى عن عبادة الله عز وجل

ثم انطلق الصولى ينفى تهمة الكفر عن أبى تمام ، وفاته أن المقصود بالرواية هو إكباب أبى تمام على شعر أبى نواس ومسلم ينتهب من معانيهما ما يشاء . وقد دافع الصولى عن أبى تمام دفاعاً جيداً ، إلا أنه ليس — فى نظرى على الأقل — أبعد من اتهام الآمدى[٢] له ، واستقصائه سرقاته برجعها واحدة فواحدة إلى أصحابها ، هذا وإن اشتط الآمدى وأفرط فى ذلك إفراطاً يبدو من ثناياه تجنيه على أبى تمام ، وظلمه له أحياناً ... والذى يعفى الآمدى من سخطنا هو إلمامه الواسع بأشعار العرب ، ومقدرته المدهشة فى رد السرقات إلى أصولها من أشعار قائليها ، وأستاذيته التى تتجلى فى إدارة حواره بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى ، والفصول القيمة التى أظهر فيها سقطات أبى تمام فى الموازين والنحو والبيان والبديع ، وما إلى ذلك كله من نواحى الضعف فى شعره

والذى يدرس أبا تمام فى هذين الكتابين الفريدين من كتب النقد العربى ، يرى كيف أن الناس — على حد ما ذكره المسعودى فى مروج الذهب[٣] كانوا فيه طرفى نقيض ... متعصب له يعطيه أكثر من حقه ، ومنحرف عنه معاند له .. أو كما قال أبو الفرج صاحب الأغانى :[٤] وفى عصرنا هذا من يتعصب لأبى تمام ، فيفرط ، حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ، ويستعملون الفجة والمكابرة فى ذلك ؛ وعبارة أبى الفرج توحى بما كان يضمره لأبى تمام من إعجاب . وقد ذكرنا فى كلمتنا ما كان يقوله دعبل فى شعر أبى تمام ، من أن ثلثه سرقة ، وثلثه غث ، وثلثه صالح . وقد روى الصولى بعد هذا الخبر عن دعبل أنه كان يقول : لم يكن أبو تمام شاعراً . وإنما كان خطيباً ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر

وقد أشرنا إلى خصومة ابن الأعرابى ، تلميذ المفضل الضبى والكسائى ، لأبى تمام ، وقد وعت بطون كتب النقد أعاجيب شتى من أنباء تلك الخصومة تعد من النوادر فى أخبار الخصومات الأدبية : فمن ذلك ما ذكره الطوسى قال : وجه بى أبى إلى ابن الأعرابى لأقرأ عليه أشعاراً ، وكنت معجباً بأبى تمام . فقرأت عليه من أشعار هُذَيل ، ثم قرأت أرجوزة أبى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عذلته فى عـــذله ... فظن أنى جاهل من جهله

حتى أتممتها ، فقال : اكتب لى هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت : أحسنة هى ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ! قلت إنها لأبى تمام ! فقال : خَرَقْ خَرَقْ ! أى مزق ، مزق !

ومع ذلك ، فقد كان ابن الأعرابى ، هذا الحجة الفاضل ، يحفظ كثيراً من شعر خصمه أبى تمام ، ويتمثل به ، وهو لا يدرى أنه له ؟

وعلى هذا النحو كان الناس فى عبقرى الشعر العربى . وعلى هذا النحو ، لا يزال الناس فى أبى تمام !

والحق الذى لا يمارى فيه إلا مكابر ، أن أبا تمام كان نادرة زمانه فى الشعر العربى ، بل إنه لا يزال نادرة هذا الشعر حتى اليوم ، فليس فى شعراء العربية من استطاع أن يصور كما صور أبو تمام . وليس فيهم من استطاع تلوين صوره كما لونها هذا الشاعر المفتن المبدع[١] ، وذلك لا يعارض ما أثبته عليه خصومه

(١) س ١٧٣ (٢) الموازنة بين أبى تمام والبحترى
(٣) ج ٧ ص ١٥٣ (٤) ج ١٥ — ص ١٠٠

(١) مما نذكره معجبين ، فى هذا الصدد ، ذلك الفصل القيم ، أو تلك الفصول القيمة ، التى جلى بها الدكتور الفاضل شوقى ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول مقدرة أبى تمام على التصوير ، وذلك فى رسالته الثمينة « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » تلك الرسالة التى لا نرى بدا من توجيه أنظار شعراء الشباب إلى ما تضمنته من بحوث عميقة جيدة فى الشعر العربى ، منذ الجاهلية إلى الآن . ونرجو أن تسمح لنا ظروفنا بمناقشة بعض آرائها التى لا نوافق الأستاذ الفاضل عليها مع اعترافنا بعظم ما فيها من حسنات .

من سطوه الكثير على معانى الشعراء ، ذلك السطو الذى كان يفتن أبو تمام فى إخفاء معالمه وستر مصادره بهذا البهرج الكثير من الصنعة البيانية ، وتلك التركيبات البديعية التى كانت تأتى زاهرة باهرة أحياناً ، وملتوية معقدة لا تكاد تفهم أحياناً أخرى : وما ظنك بهذا الالتواء الذى يشتد ، حتى لا يفهمه عبد الله التوّزى ـ أو التوّجى ، تلميذ أبى عبيدة والأصمعى ، الذى قال فيه المبرد : ما رأيت أحداً أعلم بالشعر من أبى محمد التوّزى ، كان أعلم من الرياشى والمازنى ! فقد سئل هذا الرجل عن شعر أبى تمام فقال : فيه ما أستحسنه ، وفيه ما لا أعرفه ولم أسمع بمثله ، فإما أن يكون هذا الرجل أشعر الناس جميعاً ، وإما أن يكون الناس جميعاً أشعر منه ! (الصولى ص ٢٤٥) والعجيب أن يعترف بذلك الصولى نفسه وهو (محامى) أبى تمام وقد ذكرنا كلمته التى أقر فيها بأنه : ليس أحد من الشعراء يعمل المعانى ويخترعها ويتكىء على نفسه فيها أكثر من أبى تمام وأنه متى أخذ المعنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه ، وتمم معناه ، فكان أحق به ! وقد ذكر الآمدى أن أبا تمام كان يتعالم فى شعره ويتفلسف (الموازنة ص ٢ — ١١) ويصف ممدوحيه بالرمز إلى عقائد بعض الفرق الإسلامية ، فيزيد ذلك فى غموض شعره ويضاعفه ، ويتعسر فهمه على غير من يعرف تلك العقائد ، ويلم بهذه الأسرار : فقوله من مدحة فى أبى سعيد :

فلو صح قول الجعفرية فى الذى تنص من الإلهام خلناك ملهما

لا يفهم حتى نعرف أن الجعفرية فرقة من الشيعة تنتسب إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام ، كما يحدثنا بذلك التبريزى فى شرحه لديوان أبى تمام ، وكما نعرف ذلك من كتب الملل والنحل مثلاً ، ثم قل مثل ذلك فيما يصادفك من أبياته التى تنبئ بإلمامه بالمذاهب والعلوم والفلك والنحو والمنطق مما كان يجيد الرمز به والإشارة إليه ، متعمداً مرة ، جارياً على سليقته أحياناً . وكله مما لا نرى أنه يدخل فى باب الشعر ، بل هو ، كما ذكرنا فى كلامنا عن ثقافة أبى العلاء تعالم من أبى تمام على أهل زمانه المتعالمين . أما ثقافة أبى تمام الحقة ، فتنحصر فى سعة إلمامه بشعر من تقدمه من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين والأمويين والعباسيين ، ودقة فهمه لمعانيهم ، وحسن اطلاعه على مذاهبهم . وقد اشتغل فعلاً بالتصنيف الشعرى ، يؤيد ذلك ما ذكره البديعى فى كتابه « هبة الأيام ، فيما يتعلق بأبى تمام » من أن له (كتاب الحماسة) الذى دل على غزارة فضله وإتقان معرفته ، وحسن اختياره ، وكتاب فحول الشعراء جاهليين ومخضرمين وإسلاميين ، وكتاب الاختيار من الشعراء . وكان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره ، حتى قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقاطيع والقصائد ا)[1] . وذكر البديعى كذلك سبب تصنيف أبى تمام ديوان الحماسة ، فقال (ص ١٣٨) : « فإنه لما وصل إلى همذان (فى رحلته شرقاً) ، وكان فى زمن الشتاء ، والبرد فى تلك النواحى شديد ، خارج عن حد الوصف ، قطع عليه كثرة الثلج طريق مقصده ، فأقام بهمذان ينتظر زوال الثلج ، وكان نزوله عند رجل عنده خزانة كتب فيها دواوين العرب وغيرها ، فتفرغ لها وطالعها واختار منها كتاب الحماسة) » .

وفى مؤلفات أبى تمام يقول الآمدى : (ص٢٣) : « كان أبو تمام مشتهراً بالشعر ، مشغوفا به ، مشغولا مدة عمره (بتخميره ا) ودراسته ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة ، فمنها الاختيار القبائلى الأكبر ، اختيار فيه من كل قصيدة ، وقد مر على يدى هذا الاختيار ؛ ثم اختيار آخر لم يورد فيه كبير شىء للشعراء المشهورين ، ثم اختيار ثالث تلقط فيه محاسن شعر الجاهلية والإسلام ، وأخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول ، ومنها اختيار تلقط فيه أشعاراً من العشرة المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين ، وبوبه أبواباً وصدره بما قيل فى الشجاعة ، وهو أشهر اختياراته وأكثرها فى أيدى الناس ، ويلقب بالحماسة ، ومنها اختيار المقطعات ، وهو مبوب على ترتيب الحماسة ، إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين ، وصدره بذكر الغزل ، وقد قرأت هذا الاختيار وتلقطت منه نتفاً وأبياتا كثيرة ، وليس بمشهور شهرة غيره ،

(١) هبة الأيام ص ١٠ : وفى هذا الكتاب مناقشات ممتعة لسرقات أبى تمام ودفاع مجيد عنه